الفصل الثالث

المواقف المختلفة من غزو الأعداء

بالنظر إلى ما يدور من الأحداث الخطيرة والمتسارعة والغزو المكثف لبلدان المسلمين اليوم، وما نشأ عنه من صراع بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر والنفاق، سواء ما كان منه غزواً عسكرياً للمسلمين في عقر دارهم، كما هو الحال في بلاد العراق وفلسطين وسوريا وأفغانستان، وما صاحب ذلك من التداعيات، أو ما كان منه غزواً فكرياً أو أخلاقياً كما هو الحاصل في عامة بلدان المسلمين الذي سبق تفصيله، أقول: بالنظر لهذا الغزو والصراع في ضوء سنة الابتلاء والتمحيص نرى أن هذه السنة الربانية الثابتة تجري وتؤثر أثرها بقدر الله ﷻ وحكمته؛ ألا وهو تمحيص المؤمنين وتمييز الصفوف، حتى تتنقى من المنافقين وأصحاب القلوب المريضة؛ وحتى يتعرف المؤمنون على ما في أنفسهم من الثغرات والعوائق التي تحول بينهم وبين التمكين لهم في الأرض، فيتخلصوا منها، ويغيروا ما بأنفسهم، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، فإذا ما تميزت الصفوف وتساقط المتساقطون في أتون الابتلاء، وخرج المؤمنون الصادقون منها كالذهب الأحمر الذي تخلص من شوائبه بالحرق في النار حينها تهب رياح النصر على عباد الله المصطفين الذين يستحقون أن يمحق الله من أجلهم الكافرين، ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وقبل هذا التمحيص

والتمييز فإن سنة محق الكافرين وانتصار المسلمين التي وعدها الله ﷻ عباده المؤمنين لن تتحقق.

هكذا أراد الله ﷻ وحكم في سننه التي لا تتبدل: أن محق الكافرين لابد أن يسبقه تمحيص المؤمنين، ولذلك لما سئل الإمام الشافعي رحمه الله: أيها أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ كان من دقيق استنباطه وفهمه لكتاب الله ﷻ أن قال: «لا يُمَكَّن حتى يبتلى»[1]، ولعله فهم ذلك من قوله -تعالى-: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]. فإن الله ﷻ ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- فلما صبروا مكنهم.

وللتدليل والتأكيد على أن مجتمعات المسلمين تعيش اليوم حالة شديدة من الابتلاء والتمحيص والفتنة في هذه النوازل: أذكر بعض المواقف التي أفرزتها هذه السنة -أعني سنة الابتلاء والتمحيص- في خضم هذه الفتن المتلاطمة، ولم يكن لهذه المواقف أن تعرف ويعرف أهلها قبل حصول هذه الفتن، وقد ظهرت هذه المواقف مع أننا في أول السنة وبداية الابتلاء، فكيف يكون الحال في آخر الأمر، نعوذ بالله أن نرجع على أعقابنا أو أن نفتن، وفي ذكر هذه المواقف نصيحة وتحذير لنفسي ولإخواني المسلمين من الوقوع فيها والاستعانة بالله ﷻ في الخروج منها لمن وقع فيها.

(١) ذكر هذا الأثر الإمام ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ٢٠٨).

• **الموقف الأول: موقف المنافقين والمرجفين:**

النفاق داء عضال في الأمة، ولقد عانت الأمة في تاريخها الطويل ما عانت من الخيانات ومظاهرة الكافرين وكشف عورات المسلمين لأعدائهم، ومن عادتهم أنهم لا يظهرون إلا في أيام المحن الكبيرة والنوازل العظيمة التي تمر بالمسلمين، حيث يظهر الله عوارهم ويفضحهم ويكشف أسرارهم، وهذا من رحمة الله ﷻ وحكمته في حصول الابتلاءات، ومن ذلك ما كان منهم يوم الأحزاب يوم أن أحاط المشركون وحلفاؤهم بالمدينة، ونقضت اليهود عهدها مع رسول الله ﷺ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وعند ذلك نجم المنافقون والمرجفون والمعوقون ممن كانوا مندسين في الصف المسلم، ويكفينا في وصف حال المنافقين في هذه الغزوة قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب:١٢-١٤] إلى قوله -تعالى-: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:١٨].

وها نحن في هذا الزمان نشاهد فريقاً منهم يقفون نفس الموقف الذي وقفه إخوانهم يوم الأحزاب؛ وذلك عندما رأى منافقو زماننا ما أحاط بالمسلمين من النوازل، ورأوا إخوانهم من الصليبيين يحيطون ببلدان المسلمين، فظهر نفاقهم وبدا للناس ما كانوا يخفون من قبل،

وأصبحنا نسمع منهم الإرجاف وترديد ما يقوله الكفرة الغزاة عن المجاهدين والدعاة الصادقين، وراحوا يحرضون عليهم ويشمتون بما يصيبهم من المحن والمصائب، وصاروا يبثون في الأمة اليأس من مقاومة الغزاة، ويحسنون الكفرة الغزاة في عيون المسلمين، ويستبشرون بمجيئهم ويساندونهم في تنفيذ مخططاتهم لغزو العقيدة والأخلاق، قال الله -تعالى- في وصف سلفهم من المنافقين الأولين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر:١١].

وقال -سبحانه وتعالى- عن شماتتهم بالمؤمنين، وإشاعة اليأس والإرجاف، وإساءة الظن بالله ﷻ ووعده: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح:١٢].

ولم يعد خافياً على أحد ما يطرحونه في وسائل الإعلام المختلفة، وبكل وقاحة ودون حياء ولا خوف من الله ﷻ أو من الناس، وذلك فيما يتعلق بثوابت الدين، أو ما يتعلق بالمرأة وتغريبها والتحريض على خروجها ومخالطتها للرجال، والزج بها في أعمال لا تناسب طبيعتها، مما فيه مخالفة للفطرة والشريعة.

وليس المقصود هنا تتبع ما يفعله المنافقون والمرجفون في هذه السنوات الأخيرة، والمحن العصيبة التي تمر بالمسلمين، وإنما المقصود التدليل على

أن سـنة الله ﷻ في الابتـلاء والتمحيـص أنهـا تكشـف وتفضـح المنافقين، وتبرزهـم في مجتمعـات المسـلمين، كما فضـح الله ﷻ إخوانهم وسـلفهم في غـزوة الأحزاب، وغزوة أحـد، وغزوة تبوك التي أنزل الله ﷻ فيها سـورة كاملة، هي سورة التوبة التي من أسمائها الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين وميزتهـم، وهـذه من الحكـم العظيمة، والفوائـد الجليلة لسـنة الابتلاء؛ إذ لـو بقي المنافقون في الصف المسـلم دون معرفة لهم؛ فإنهم يشـكلون خطراً وتضليـلاً وتلبيسـاً للأمـة، أمـا إذا عرفـوا وفضحـوا وتميزوا، فـإن الناس يحذرونهـم، وينبذونهم ويجاهدونهم بالحجة والبيان، أو بالسـيف والسـنان إن ظهـر انحيازهـم للكفار ومناصرتهـم لهم، ووجدت القـدرة على ذلك، وبذلك يتخلص المسـلمون من سـبب كبير من أسـباب الهزيمة والفشـل، ويتهيئون لنصر الله ﷻ وتأييده.

وها هي الأحداث في سـوريا ومصر كم كان فيها من الخير في فضح المنافقـين مـن الرافضـة الباطنية أو العلمانيـين والليبراليـين الذين أظهروا كرههم وحقدهم للمسـلمين الصادقين، وانحيازهم إلى خندق الكافرين المجرمين ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

- **الموقف الثاني: موقف اليائسين والمحبطين والمخذلين**

لما كشـف أعداء هذا الدين من الكافريـن وبطانتهم من المنافقين عن عدائهـم الصريح وحربهـم المعلنة على الإسـلام وأهلـه، وعندما تعرض كثير من المسـلمين ومؤسسـاتهم الدعوية والخيرية للمضايقة والأذى من الكفرة والمنافقة، شـعر بعض المسلمين حينئذ بشيء من اليأس والإحباط

والخـوف، وبخاصـة لما قام شـياطين الإنـس والجـن يبثون وساوسـهم وشـبههم في تضخيـم قـوة الأعـداء وأنها لا تقهـر، وأن المنكـرات عمت وطمـت، ووسـائلها سـيل جارف لا يمكـن مقاومته عندها: سـيطر على بعض النفوس اليـأس من ظهور هذا الدين والتمكين لأهله؛ فكان منهم فئة ظهر ضعف يقينها ومرض قلوبها في هذه الابتلاءات فشكت في ظهور هذا الدين، واهتز يقينها بوعد الله -تعالى- بنصرة دينه، وهؤلاء على خطر يهدد إيمانهم، ويخشى أن يقعوا في فتنة المنافقين الظانين بالله ظن السوء.

وفئة أخرى لم يسـاورها الشـك في ظهور ديـن الله -تعالى-: ونصره لأوليائـه، وإنـما أصابهـا اليأس مـن ذلك في هـذا الزمان، حيـث رأت أن المسـلمين اليـوم غير قادريـن على المواجهـة لعدم تكافؤهم مـع عدوهم، وعليه فلا داعي للمقاومة التي لا تفيد شيئاً، وإنما هي بمثابة المحرقة التي تحرق المسلمين وبخاصة المجاهدين منهم، والحل عند هؤلاء: الاستسلام للواقـع أو اعتزالـه، وانتظـار معجزة ربانية مـن الله ﷻ كانتظار المهدي أو المسـيح عيسـى ابن مريم -عليه الصلاة والسـلام-!! ولا يخفى ما في هذا التصـور من الانحراف والشـطط، وكم هو مفـرح للكفرة والمنافقين مثل هـذا التفكـير ومثل هـذه المواقف المسـتخذية التي تبث اليـأس في نفوس المسـلمين، وتعيقهم عن بذل الجهـد في الدعوة ومدافعة الفسـاد والأخذ بالأسباب الشرعية والمادية للنصر على الأعداء.

وإن مواقـف الخوف واليـأس والإحباط ما كانت لتعرف لولا سـنة الابتلاء والتمحيص. وظهور هذه السـنة وعملها اليوم في حياة المسلمين

هي التي أفرزت وأظهرت مثل هذه المواقف، وفي ظهورها فائدة لأصحابها لعلهم أن يراجعوا أنفسهم، ويقلعوا عن هذه المواقف بعد أن اكتشفوا هذا المرض الكامن في نفوسهم بفعل هذه السنة، كما أن فيه فائدة أيضاً لغيرهم ليحذروا من هذه المواقف، ويحذروا ممن ينادي بها؛ قال الله -تعالى- في تحذير عباده المؤمنين من الوهن واليأس والإحباط: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

وقال -سبحانه وتعالى- في وصف عباده الصابرين والموقنين بنصره ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

وقال -سبحانه وتعالى- في وصف أصحاب محمد ﷺ لما تحزبت عليهم الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

- **الموقف الثالث: موقف أهل الدنيا الراكنين إليها اللاهثين وراء حطامها، المتنافسين عليها**

وأهل هذه المواقف هم الذين لا هم لهم إلا هذه الدنيا والتمتع بلذاتها، ولا هم لهم إلا أنفسهم وأسرهم، وتوفير متاع الدنيا الزائل لهم.

أما ما يتعرض له الدين وأهله من أذى وإفساد وابتلاءات فقد كشفت سنة التمحيص أن هذا ليس من همهم، بل قلوبهم باردة ساكنة ما دامت مساكنهم ومطاعمهم ومشاربهم سالمة لهم. ودورهم في نوازل الأمة أن يسألوا عن أخبارهم وما حل بهم، ولا يتجاوز الأمر ذلك، قال الله ﷻ عن أمثال هؤلاء: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠].

- **الموقف الرابع: موقف المسايرين للواقع أهل الحلول الوسط**

وهم الذين نظروا إلى شدة ما يصيب المسلمين في هذه الأزمنة من الأذى والتضييق والابتلاءات المتنوعة، فرأوا أن الثبات والصمود على ثوابت هذا الدين والصبر على أحكامه الشرعية، ومصادمة الواقع مما يصعب في مثل هذه الظروف؛ لأن أعداء هذا الدين لا يرضون بذلك، بل يوجهون حربهم إلى هؤلاء الثابتين الذين يطلقون عليهم تارة: الأصولية، وتارة: المتشددين، وتارة: الإرهابيين، والخطير في هذه المواقف الانهزامية أنها تغطى بشبه شرعية، ويحاول أصحابها أن يؤصلوا ضعفهم ومواقفهم هذه بأدلة، يزعمون أنها قواعد شرعية مع أنها غير منضبطة بضوابط الشرع ولا ملتزمة بمقاصده؛ كاستدلالهم مثلاً بالضرورة وأحكامها، وقواعد التيسير ورفع الحرج، وبالمصالح المرسلة وغيرها، مما هي صحيحة في أصلها لكنها فاسدة في تطبيقها[1].

(١) للرد على هذه الشبهات انظر كتاب «فاستقم كما أمرت» للمؤلف.

وعلامـة أصحـاب هـذا الموقف أنهـم يصفـون أنفسـهم أو يصفهم غيرهـم بالمعتدلـين أو التنويريـين، وهـذه المواقف ما كانـت لتعرف لولا سـنة الابتـلاء التـي تمحـص وتميـز الصفـوف، ويكشـف الله بهـا كوامن النفـوس التي يعلمها الله مسـبقاً، لكنه –سـبحانه– يظهرها للناس بفعل سـنة الابتلاء والتمحيص، وصدق الله العظيم: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

يقول الأستاذ إياس المزني واصفاً لهذه الحالة:

(تسربـت إلى السـاحة الإسـلامية، واعـترت الفهـم الإسـلامي في الدعـوة الاسـتعجال واسـتبطاء النتائج. ومـن أهم الأسـباب التي أدت إلى هـذا الحـال، ضغط الجاهلية، وقوة وسـائلها في الحيلولـة دون الدعوة والوصول إلى أهدافها.

فإلى ماذا أدَّى هذا الموقف؟

الملاحـظ: أنـه أدى ببعـض العاملين إلى الانسـحاب والنكوص عن طريـق الدعوة.. أما هذه النتيجة فليسـت من مقاصد الكلام، لأنها نتيجة واضحـة، والموقف منها –تبعاً لذلـك– لا يحتاج لكثير بيان، فهي –إذن– ليست محلاً للبحث في «ميزان الحكمة».

إن النتيجة الخطيرة والدقيقة لهذه العلة تتمثل فيمن يبقى مسـتمراً في طريق الدعوة، لا يُصرح بالخروج عنها، ولكنه يصاب بالملل من التمسك

بالثوابت التي قام في الأصل يدعو إليها! والغطاء المستخدم عادة في مثل هذه التحولات هو التنازل المُبرَّر!..

...ومن المهم التوضيح أن هذا الموقف يبرز عندما تمل الجاهلية من أساليب القمع والسجون، لأنها ترسخ التمسك بالدعوة، وتميل إلى ما هو أخطر، وهو محاولة الاحتواء وتمييع الطرح الإسلامي.

وتعلن الجاهلية: تفضلوا، اعملوا للإسلام من خلال مؤسسات الدولة! واعرضوا برامجكم على الناس، ولتحققوا ما تستطيعون من مكاسب.

إن دعوة الجاهلية الدعاة إلى الإصلاح من خلال مؤسساتها، تمثل إغراءً تصعب مقاومته، وتؤثر سلباً على المنهج السليم في التغيير..

لقد واجه رسول الله ﷺ مثل هذا الموقف. واقع صعب ضاغط، وعروض من الجاهلية توهم بالتنازل: كن ملكاً، كن أغنانا، كن سيدنا.. فلم ينثن ﷺ، ولم ينسحب إلى التأويل، بل بقي ثابتاً على مبادئه «النظرية» التي بدأ بها..

.. إن أمام الدعاة طريقاً طويلاً وصعباً، وإن بداية الفتنة تأويل، ووضوح الغاية المنسجمة مع القدرات المرحلية حاجز أمام الفتنة، ومانع من أن يقف لك أحدهم كالشوكة في الحلق؛ ليرد عليهم قائلاً: «هناك فرق بين التنظير والواقع.. وكلامك نظري»[1] اهـ.

---

(١) مجلة السنة العدد (٦٧).

وتأييداً لهذا الكلام فلتنظر إلى تجربة جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر، وتجربة حماس في غزة، وآخرها وأشدها مأساة تجربة الإخوان في مصر وانقلاب السيسي وزمرته العلمانيين على حكومة الإخوان المنتخبة، وتحويل البلاد إلى حمام دم ومعتقلات.

وقد أخبر النبي ﷺ أن المتمسك بدينه في آخر الزمان يعد غريباً بين الناس، ووصفه بأنه كالقابض على الجمر، وهذا الوصف لا يقدر عليه إلا أولوا العزم من المؤمنين الصابرين؛ قال ﷺ: «**إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**» قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ**»(١).

وقال ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ**»(٢).

ولا يخفى على من يراقب اليوم كثيراً من الفتاوى والحوارات التي تقوم بها بعض الصحف والمجلات والقنوات الفضائية ما تحمل من هذه المواقف المتميعة، والتي يحاول أصحابها أن يتشبثوا بأدنى شبهة أو أدنى قول شاذ، يخالفه الدليل الصحيح من الكتاب والسنة، وهذه المواقف والفتاوى لم تقتصر على الأحكام فحسب، بل وصلت إلى أصول العقيدة وأركانها والتميع في تناولها، وبخاصة ما يتعلق بمسائل الإيمان والكفر

(١) تحفة الأحوذي (٢٣٦١) (٦/ ٥٣٩)، وقال الترمذي: حديث غريب. وقال الأرناؤوط في «جامع الأصول»: له شواهد يرتقي بها.
(٢) الترمذي (٢/ ٤٢)، وابن بطة في «الإبانة» (١/ ١٧٣)، وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني بشواهد في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٧).

وحدودهما، أو بمسائل الولاء والبراء، أو ما يتعلق بالجهاد وأحكامه، والمقصود أن سنة الابتلاء والتمحيص التي نعيشها هذه الأيام قد أفرزت مثل هذه المواقف، ولله ﷻ الحكمة في ذلك؛ لأن في ظهورها خيراً لأهلها، لعلهم يحاسبون أنفسهم فيتخلصون منها كما أن فيها خيراً أيضاً لغيرهم حتى يحذروها ويحذروا منها.

• **الموقف الخامس: موقف المتعجلين المغيرين بالقوة دون مراعاة لفقه الموازنات:**

وهذا الموقف يقابل الموقف السابق وإن كان يجمعهما استعجال النتائج واستبطاء النصر، فبينما ينحى الموقف السابق إلى التنازل عن بعض الثوابت والتعلق ببعض الشبهات والشذوذات الفقهية، يذهب أصحاب هذا الموقف إلى الطرف المقابل، حيث لم يصبروا على ما يرون من شدائد ومحن وابتلاءات توجه للمسلمين في دينهم وأعراضهم وعقولهم، ورأوا أن الموقف إزاء مثل هذه الابتلاءات هو المواجهة المسلحة، دون أن ينظروا إلى ما يترتب عليها من مفاسد كبيرة، ودون أن ينظروا إلى واقعية المصالح التي يسعى لتحقيقها من عدمها، فنشأ من جراء ذلك أضرار عظيمة عليهم وعلى الدعوة وأهلها في المحيط الذي تدور فيه هذه المواجهات.

وهنا أود التنبيه إلى أنه ليس المعني في هذه المواقف تلك الحركات الجهادية، التي تدافع عن المسلمين وديارهم في أفغانستان والعراق والشيشان وفلسطين وكشمير وسوريا وغيرها، ممن يقوم بجهاد الدفع عن ديار المسلمين المحتلة، وإنما المعني هنا أولئك الذي يرون المواجهة

المسلحة في بعض بلدان المسلمين قبل وضوح راية الكفر في تلك البلدان للناس، ودون وضوح راية أهل الإيمان في مقابل ذلك، ودون قدرة مما ينشأ عنه اللبس والتلبيس على الناس، فتختلط الأوراق ويجد هؤلاء المجاهدون المتحمسون أنفسهم وجهاً لوجه مع إخوانهم المسلمين، فحينئذ تقع الفتنة بين المسلمين، ويقتل بعضهم بعضاً، كما قد حصل في بعض بلدان المسلمين.

أما تلك الحركات الجهادية التي أعلنت جهادها على الكفار في العراق وأفغانستان لمواجهة التحالف الصليبي، أو في كشمير لمواجهة الهندوس والوثنيين، أو في الشيشان لمواجهة الملاحدة الشيوعيين، أو في فلسطين لمواجهة اليهود الغاشمين، أو في سوريا لمواجهة النصيرية والروافض الباطنيين، فإنها حركات مشروعة لوضوح الراية الكفرية ووجود القدرة، وزوال اللبس عن المسلمين في تلك الأماكن، كما أنه جهاد للدفاع عن الدين والعرض والمكان حتى لا ترتفع فيه راية الكفار.

والذي حملني على هذا التنبيه ما نسمعه -ويا للأسف- من بعض الفتاوى المتسرعة التي مفادها أن القتال ضد الغزاة الكفرة في سوريا والعراق وغيرها من بلدان المسلمين المغزوة عسكرياً هو قتال فتنة وتعجل وافتئات على الأمة، وهذا من صور الابتلاء الذي يتعرض له علماء الأمة في هذه الأزمنة.

جاء في إحدى افتتاحيات مجلة البيان مقال بعنوان ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ يلخص فيه المواقف السابقة، وقد جاء فيه:

(ليس أضر على الدعوات من أن يتسرب اليأس إلى أفرادها، أو يصيبهم الوهن والضعف بسبب محنة أو ابتلاء، فهذا مرض قاتل حذر الله المسلمين منه بعد غزوة أُحد، فخاطبهم قائلاً: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحۡزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، فإن من سنة الله في الدعوات أن تنتصر وتنهزم، وتُبتلى بالمصائب ونقص الأفراد والأنفس؛ لتكون دروساً قاسية يتعلم فيها المسلم أشياء لم يكن ليتعلمها بالوعظ والكلام.

لقد ابتليت الدعوات في هذه الأيام بتسلط الظالمين المفسدين يؤُزّهم من ورائهم شياطين الإنس من كل ملة ودولة، بل إن المتتبع لما يجري على الساحة في أنحاء العالم الإسلامي ليجد تصميماً عجيباً على إقصاء الإسلام وإبعاده عن الفعل والتأثير، ويقابل ذلك دعوات مخلصة، ولكن مع تفرق في الصف الإسلامي، وضعف في الأخذ بالسياسة الشرعية المناسبة لكل حدث ومعرفة سنن الله في التغيير.

وقد علَّمتنا دروس التاريخ القديم والحديث أنه بعد الفتن والمحن يخرج أصناف من الناس إذا عرفنا توجهاتهم، فلعلنا نخرج بأقل الخسائر.

هناك صنف من الناس سيصاب بإحباط شديد وبصدمة عنيفة، فهو لم يتوقع أبداً ما يحدث ولم يُعد للأمر عدته، ولم يتعود إلا على سماع الأخبار التي يحبها، ذلك لأنه عاطفي خيالي، فهو يرى أن دولة الإسلام قاب قوسين أو أدنى لما يرى من كثرة المقبلين على هذا الدين، ولما سمع من أن الإسلام قادم (وهو قادم بإذن الله)، هذا الصنف لا ينقصه الإخلاص، ولكن تنقصه التجربة والوعي العميق بتاريخ الدعوة وتاريخ الدول، وأسباب النجاح والفشل.

فخرج في المقابل صنف ينقصه الفقه بمقاصد الشريعة، يقول: لا فائدة من الدعوة والعمل والكلام.. ولا يحل المشكلة إلا القوة، فهذا في الظاهر شجاع ولكن في الحقيقية يقوم بعملية هروب، ولكنه هروب إلى الأمام!

وصنف ثالث مخالف تماماً للنصف السابق، إنه في الطرف الآخر، فهو يرى أنه لا داعي إلى التضحيات والعمل الدعوي والتعاون مع إخوانه في سبيل الحق، فالقضية تحتاج إلى نفس طويل، وعودة إلى الكتب والقراءة من جديد والفكر، والحوار، وعدم العنف (والجهاد -عند هؤلاء- عنف!)، وهذا الكلام ظاهره فيه شيء من الحق وباطنه الهروب من الاستمرار والمواجهة.

إن العودة للنقد الذاتي والتعمق في فهم أخطاء الماضي شيء طيب، ولكن هذا الصنف -مثل المرجئة- إنما يريد الهدوء وراحة البال.

وظهر صنف رابع هو من أخطر هؤلاء، هذا الصنف كان يكتم حب الظهور والرئاسة؛ لأن الوقت غير مناسب أو كان مندساً بين الصفوف، وقد لاحت الآن الفرصة ليتقرب من أصحاب الشأن، ويقدموا لهم فتات الموائد، وإن من فوائد المحن وحكم الابتلاء ظهور مثل هذا الصنف حتى تتمحص الصفوف ويُعرف الكاذب الدعي من الصادق المخلص.

سيبقى أعداد كثيرة -بإذن الله- على الحق سائرون، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم)[1].

(١) مجلة البيان العدد (٤٢).

وفي ختام ذكر هذه المواقف المختلفة إزاء مظاهر الغزو والكيد لهذا الدين من الكفار والمنافقين يحسن التنبيه إلى سنة ثابتة من سنن الله ﷻ يناسب ذكرها في هذا المقام، ألا وهي:

سنة الإملاء والاستدراج للكفار والمنافقين:

قال -تعالى-: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨].

وقال -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].

وقال -سبحانه-: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٤-٥٦].

وهذه السنة الإلهية تجري بقدر الله في هذه الأوقات؛ وذلك في معسكر أهل الكفر والنفاق؛ وبخاصة أولئك الذين بلغ بهم الكبر والغطرسة والظلم والجبروت مبلغاً عظيماً، ونراهم يزدادون يوماً بعد يوم في الظلم والبطش والكبرياء، ومع ذلك نراهم ممكنين ولهم الغلبة الظاهرة، كما هو الحاصل الآن من دولة الكفر والطغيان أمريكا؛ حيث ظلمت وطغت، وقالت بلسان حالها ومقالها: من أشد منا قوة، وكما هو الحاصل من دولة اليهود في فلسطين، وما يجري من مذابح مروعة في سوريا ومصر وبورما والعراق وغيرها.

وقد يحيك في قلوب بعض المسلمين شيء وهم يرون هؤلاء الكفرة يبغون ويظلمون، ومع ذلك هم متروكون لم يأخذهم الله بعذاب من عنده،

لكن المسلم الذي يعرف ربه بأسمائه وصفاته الحسنى، والذي يفقه سنن الله ﷻ ويتأملها ويرى آثارها وعملها في الأمم السابقة لا يحيك في نفسه شيء من هذا، لأنه يرى في ضوء هذه السنة أن الكفرة اليوم وعلى رأسهم أمريكا وحلفاؤها من الغرب هم الآن يعيشون سنة الإملاء والاستدراج التي تقودهم إلى مزيد من الظلم والطغيان والغرور، وهذا يقودهم إلى نهايتهم الحتمية، وهي الهلاك والقصم في الأجل الذي قد ضربه الله لهم قال -تعالى-: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف:٥٩].

يقول صاحب »الظلال« رحمه الله عند هذه الآية السابقة الذكر من سورة آل عمران:

(وفي هذه الآية يصل السياق إلى العقدة التي تحيك في بعض الصدور، والشبهة التي تجول في بعض القلوب، والعتاب التي تجيش به بعض الأرواح، وهي ترى أعداء الله وأعداء الحق، متروكين لا يأخذهم العذاب، ممتعين في ظاهر الأمر، بالقوة والسلطة والمال والجاه! مما يوقع الفتنة في قلوبهم وفي قلوب الناس من حولهم، ومما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يحسبون أن الله -حاشاه- يرضى عن الباطل والشر والجحود والطغيان، فيملي له ويرخي له العنان! أو يحسبون أن الله -سبحانه- لا ينصر الحق على الباطل ويدع الباطل أن يحطم الحق، ....! أو يحسبون أن هذا الباطل حق، وإلا فلم تركه الله ينمو ويكبر ويغلب؟ أو يحسبون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق في هذه الأرض، وأن ليس من شأن الحق أن ينتصر! ثم يدع المبطلين الظلمة

الطغاة المفسدين، يلجون في عتوهم، ويسارعون في كفرهم، ويلجون في طغيانهم، ويظنون أن الأمر قد استقام لهم، وأن ليس هنالك من قوة تقوى على الوقوف في وجههم!!!

وهذا كله وهم باطل، وظن بالله غير الحق، والأمر ليس كذلك، فالله -سبحانه وتعالى- يحذر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظن، إنه إذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم الذي يسارعون فيه، وإذا كان يعطيهم حظاً في الدنيا يستمتعون به ويلهون فيه؛ إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء فإنما هي الفتنة، وإنما هو الكيد المتين، وإنما هو الاستدراج البعيد: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨].

ولو كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من غمرة النعمة بالابتلاء الموقظ لابتلاهم، ولكنه لا يريد بهم خيراً وقد اشتروا الكفر بالإيمان، وسارعوا في الكفر واجتهدوا فيه! فلم يعودوا يستحقون أن يوقظهم الله من هذه الغمرة -غمرة النعمة والسلطان- بالابتلاء! ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

والإهانة هي المقابل لما هم فيه من مقام ومكانة ونعماء.

وهكذا يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة للمؤمنين لا تصيب إلا من يريد له الله به الخير، فإذا أصابت أولياءه فإنما تصيبهم لخير يريده الله لهم -ولو وقع الابتلاء مترتباً على تصرفات هؤلاء الأولياء- فهناك الحكمة المغيبة والتدبير اللطيف، وفضل الله على أوليائه المؤمنين)[1].

---

(١) انظر: «تفسير في ظلال القرآن» (٢/ ٦).

ويقول في موطن آخر:

(وإنه لمما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي، أو المستهتر الفاسد، أو الملحد الكافر، ممكناً له في الأرض، غير مأخوذ من الله، ولكن الناس إنما يستعجلون؛ إنهم يرون أول الطريق أو وسطه، ولا يرون نهاية الطريق. ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء! لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث. والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون -في حياتهم الفردية القصيرة- نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة، ويحسبونه نهاية الطريق!)(١).

إذن فمن حكمة الله ﷻ في سنة الإملاء للكافرين أن يمكنهم في هذا الإملاء، ليزدادوا إثماً وطغياناً يندفعون به بعجلة متسارعة إلى نهايتهم التي فيها قصمهم ومحقهم، وقد بدت بوادر المحق في الكفار والحمد لله رب العالمين، والله ﷻ بمكره وكيده للكفار قد أغفلهم عمَّا يترتب على حماقاتهم وطغيانهم؛ لتحق عليهم سنته في محق الكافرين وهلاكهم، كما أن من حكمته -سبحانه- في إملاء الكافرين وظلمهم وتسلطهم على المسلمين تحقيقًا للسنة التي سبق الحديث عنها، ألا وهي سنة الابتلاء والتمحيص للمؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

فذكر الله -سبحانه- التمحيص قبل المحق ولو محق الله الكفار قبل تهيأ المؤمنين الممحصين، فمن يخلف الكفار بعد محقهم؟ إن الله ﷻ حكيم

(١) المصدر نفسه (٢/ ٤٧١).

عليم. فلله ﷻ الحكمة في وضع السنتين سنة الابتلاء وسنة الإملاء في آيتين متلاحقتين في سورة آل عمران؛ قال -تعالى-: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨].

ثم قال سبحانه بعدها: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٩].

- **الموقف السادس**: الموقف الحق الموفق إزاء غزو الأعداء، وهو موضوع الفصل الآتي (الفصل الرابع).